

دراسة نفسية في شعر عنتره بن شداد على أساس معنى
(نظرية أدلر النفسية)

**Criticism in Jaheli Poem According to
Adler Psychological Hypothesi (Special in
Antara ebne Shadad Poem)**

اسحق رحمانى أستاذ مشارك بجامعة شيراز / إيران

esrahmani@yahoo.com

حسين كيانى أستاذ مشارك بجامعة شيراز / إيران

أرغوان طاهرى طالب ماجيستر بجامعة شيراز / إيران

ملخص:

العلاقة الوثيقة بين الأدب والنفس، أدت إلى ظهور النقد النفسي في الأدب. إن الاتجاه النفسي في دراسة الأدب يحاول تتبع حياة المؤلفين لإيجاد العلاقة بينهم وبين أدبهم، ويحاول النقاط ما أمكنه من جزئيات السيرة الذاتية للأديب وتحليل نفسية الكاتب من خلالها. من علماء النفس الذين ساعدوا على نمو هذا النقد، هو: ألفرد أدلر الذي قام بالنتظير في النقد النفسي وقدم نظريته المعروفة إلى عالم الأدب. اهتم أدلر في دراساته النفسية بالفوارق الفردية التي تسعى في تحديد خصائص السيكولوجية الفردية من خلال السلوك الاجتماعي الذي من شأنه أن يبين طرائق النشاط النفسي الناتج عن هذا السلوك، اتجه أدلر إلى «الشعور بالنقص» الذاتي للكائن البشري وما يدعى بالليات التعويض أو التعويض الأعلى بفعل التأثيرات المباشرة لما يدركه المرء من نقص أو قصور نفسي أو فيسولوجي، وبذلك يصبح القصور عند أدلر قوة وهاجة لتحريك مشاعر الفنان.

هذا البحث يحاول دراسة شعر عنتره بن شداد كواحدة من مجموعات الشعرية الكبرى التي احتوت رصيماً هاماً من أرصدة الشعر العربي، يكفي لاستكشاف جوانب البيئية، والتعرف على طبيعة العيش فيها، وبأنس إلى عرض صورة دقيقة للواقع النفسي الشاعر على أساس نظرية أدلر النفسية.

يتبين من خلال هذا البحث، أن عنتره بن شداد يعاني من عقدة السواد ونسبه يجتهد لتعويض ما فات، ويتمسك بصفاته التي يتحلي نفسه بدلاً عن صورته الجسمية التي منعت المزايا الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: عنتره بن شداد؛ النقد النفسي؛ أدلر؛ الشخصية؛ عقدة النقص.

Abstract

Irrefrangible connection between literature and psyche causes criticism psychology in literature's ambit. This criticism is trying to show the interdependency between literature and belletrist and whatever is hidden behind the literary work. Adler give opinion about criticism psychology. His emphasis on the importance of feelings of inferiority — the inferiority complex—is recognized as isolating an element which plays a key role in personality development. Alfred Adler considered human beings as an individual whole, therefore he called his psychology "Individual Psychology and he suggests beside the opinion of Freud sPersonal unconscious that it is common in people and literature especially literature of social.

This dissertation is trying to study Antara ebne Shadad s poetry with Personal unconscious and show how an aware poet is expressing under the influence of the unconscious and inferiority complex. This dissertation shows that Antara ebne Shadad how try to gain her personality. He use the poem as affective tool, plus use that in a good way that cause to freedom.

Key words: criticism psychology, Adler, unconscious, feelings of inferiority, Psychoanalytic Criticism, Antara ebne Shadad

=====

المقدمة:

لا شك أن الأدب صورة من صور التعبير عن النفس، والتحليل النفسي للأدب يقوم بدراسة الآثار الأدبية وتحليلها تحليلاً نفسياً. والواقع أن الأدب أصلح الميادين الفكرية لظهور العلاقة الوثيقة بينه وبين علم النفس لأنه حصيلة اللاشعور قبل أن يكون حصيلة الوعي والإدراك. والمنهج النفسي هو منهج نقدي يقوم بدراسة الأنماط أو النماذج النفسية في الأعمال الأدبية، وبدراسة القوانين التي تحكم هذه الأعمال في دراسة الأدب.

ليست قضية العلاقة بين الأدب وعلم النفس قضية حديثة وليست شيئاً اكتشفه الإنسان الحديث، لأنها كانت قائمة منذ معرفة الإنسان، ووسيلة التعبير عن نفسه. فقد أدرك الإنسان منذ البداية، هذه العلاقة وأحسّ بآثارها وحصيلها وإن كان هذا الإحساس غامضاً هو لم يكن يتأمل في هذه العلاقة ولم يبحث عن أسرارها إلى أن بلغ مرحلة كافية من النضج والتطور، ومن محاولاته هذه، هي البلاغة القديمة التي تعتبر صورة لمحاولة الإنسان المتجددة في سبيل تحديد طبيعة هذه العلاقة¹ فالعمل الأدبي هو استجابة معينة لمؤثرات خاصة، وهو عمل ينتج عن القوي النفسية وعمل يمثل الحياة النفسية، ويمتزج من إحياء العمل الأدبي، وطبيعة المستجيب له، فالأدب يتأثر عن النفس من حيث المصدر والوظيفة.²

لقد اهتم الكثير من مؤرخي ونقاد الأدب اهتماماً بالغاً بالعلاقات بين المؤلفين والظروف التي يعيشون فيها ويكتبون عنها، كما اهتموا بالصلات بين الأعمال الأدبية والمجتمع الذي ينعكس في آثارهم. حيث يعالجون العمل الأدبي على أنه مرتبط بالظروف الاجتماعية التي يعيش فيها المؤلف. يعدّ أرسطو الشعر ظاهرة نفسية تنشأ عند الإنسان منذ طفولته بسبب وجود نزعتين في الطبيعة الإنسانية: النزعة إلى المحاكاة والنزعة إلى الانسجام والإيقاع. وأيضاً يعتقد أن الشعر علم، لكنه ليس علماً يرتبط بالعالم المادي المحسوس، بل هو يرتبط بالمشاعر والأحاسيس ويكشف عن خفايا الإنسان وأسراره ويبين أن الغرض الشعري ينشأ عن الانفعال أو عن العاطفة وبالانفعال وحده لا يخلق، كما يجب أن تكون العاطفة لتحرك الانفعال، فينشأ الغرض الشعري.³

هذه المقالة تهتم بدراسة العقدة النفسية في شعر عنتره بن شداد، الشاعر العربي الجاهلي وبعد تحليلها الأبيات تصل إلى هذه النتيجة أنه تأثر عن عقده النفسية، يستعين من اللاشعور ليصل إلى حياة آمنة سليمة .

هدف البحث:

الغاية من هذا البحث هو الوصول إلى الهدفين التاليين:

1. تبين العلاقة بين حياة الشاعر النفسية ومضامينه الشعرية الذي اختاره

الشاعر.

2.تحديد الحالة النفسية وعقدة النقص في حياة الشاعر وأثرها في خلق الآثار الأدبية، معني وشكلاً من خلال نظرية أدلر النفسية.
الدراسات السابقة:

العنبيكي(2010) قد خصص فصل من دراسته لدراسة نفسية لشعر إمري القيس في شعره، وأثبت أن الشاعر كان ميّالاً إلى الغزل بما أنه منع من إبنه عمه. وأيضاً يذكر أن الحياة المترفة كان لها أثر على أشعاره الإباحية.

طليمات والأشقر(2007) يتطرق في بحثه إلى عنزة وديوانه من حيث فنونه ولكن لم يقم الباحث بالتحليل النفسي. وفي النهاية يرى أن «قاموس الشاعر يقف بصفة خاصة عند اللونين الأسود والأبيض، ويكثر من كلمات العبد والغراب والمسك والكحل بالإضافة إلى النار والبرق والغضب والسيف والغبار والدم والشرار». والناقد يرمي من تسجيل هذه الظاهرة إلى ربط شعره بفكره، ولغته بعقدته. ويثبت من خلال استعمال الألفاظ بعقدة النقص في الشاعر.

الشرقاوي (د.ت) درس إلى الظاهرة النفسية في شعر عنزة واستعمال الضمائر المفردة، وأيضاً يأتي بمقارنة بين عنزة وشنفرى من حيث استعمال الضمائر المفردة ومقارنة بين امرئ القيس وعنزة في وصف حبيبتيهما.

عرب وحق پناه (1390) يبحثان عن التحليل النفسي في أشعار الصعاليك على أساس نظرية أدلر النفسية، ويبحثان عن أحوال والظروف السياسية والإجتماعية في العصر الجاهلي التي يرفض الحرية لولد الإمام وأبناء السود ومنهم الصعاليك. والجديد في هذه الدراسة هو تطبيق نظرية أدلر على شعر عنزة بن شداد مع التركيز على السيكولوجية الفردية وتبيين المفاهيم الأساسية لهذه النظرية باستخراج ودراسة الأبيات التي تتصل بهذه المفاهيم.

منهج البحث:

اعتمدت هذه الدراسة في تحليلها على المنهج النفسي، حيث يتطرق هذا المنهج إلى البواعث النفسية التي تدفع الشاعر إلى قول الشعر وإبداعه ويربط الآثار الأدبية بعقدة الشخص الدونية. فمن هذا المنطلق، هذه الدراسة تشير إلى نظرية أدلر في

العقدة الدونية- وهي نظرية ترى أن هناك علاقة تامة بين الآثار الأدبية وكبت الشخص- ثم تختار من أشعار عنتر بن شداد، وتقوم بتحليلها للآبيات التي تدرس العقدة الدونية والفردية دراسة نفسية.

أسئلة البحث:

تحاول هذه الرسالة الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال دراستها:

1. ما هو أثر عقدة النقص في شعر الشاعر؟

2. كيف يكون هذا التأثير شكلاً ومعني؟

آدler حياته ونشأته :

يعتبر آدler واحداً من الثلاثة العظام - مع كل من سيجموند فرويد وكارل جوستاف يونج- الذين كان لهما فضل في تأسيس علم النفس الحديث. وقد ولد ألفريد آدler في عام 1870 في إحدى ضواحي مدينة «فيينا» عاصمة النمسا، ولقد أصبح آدler طبيباً بشرياً بعد أن تخرج من كلية الطب جامعة فيينا عام 1894، وكان من أول من اهتموا بنظريات سيجموند فرويد كما أنه اعترف بأن هذه النظريات قد فتحت له طريقاً جديداً لتحديث وتطوير علم النفس.

وبدأ آدler يهتم بالتحليل النفسي وانضم إلى جماعة المناقشة التي أنشأها فرويد في عام 1902، وفي عام 1910 أصبح رئيساً لمجتمع التحليل النفسي بفيينا وأعلن انفصاله عن فرويد، فقد كان فرويد يأمل في أن يكون تعيين آدler - في هذا المنصب- كفيلاً بتقريب الفوارق الفكرية بينهما، لكن العكس هو الذي حدث فإن الخلافات سرعان ما تفاقمت، وأصبح الخلاف من وجهة نظره ووجهة نظر كل من فرويد ويونج أكبر من أن يتغاضي عنه، مما أدى إلى استقالته في عام 1911، ولم يكن هذا الانفصال سلمياً بل كان هناك الكثير من المرارة من كلا الجانبين⁴، فنعته فرويد بأنه "غير طبيعي" وأن طموحه الشديد قاده نحو الجنون، ولم يكن آدler أفضل منه بكثير فقد وصف أفكار فرويد بالفقارة والفحش ونعته بالمخادع المحتال، ثم كَوّن آدler - مع بعض زملائه- جماعة "البحث الحر في التحليل النفسي"، وغير اسمها في العام التالي إلى جماعة "علم النفس الفردي"⁵.

إنه من الواضح أن كل أعمال أدلر تدين بالكثير لزملائه السابقين، ولكنه كان يحمل في داخله - ومنذ البداية- طريقة مختلفة ومستقلة في وصف وعلاج مشاكل البشر.

كما قلنا فإن أدلر قد شكل جماعة "علم النفس الفردي" في عام 1912 والتي أكدت على أهمية النظرة الشاملة لشخصية الفرد، وكلمة "فردي" قد استخدمت للتأكيد على تميز واختلاف كل شخصية عن الأخرى، وعن عدم إمكانية تقسيم أو تجزئة الشخصية، بل وجوب النظر إلى الشخصية على أنها وحدة لا تتجزأ.

أما بعد تولي هتلر حكم ألمانيا فبدأت فترة عصيبة في حياة ألفرد أدلر وغيره من اليهود، ولكن لحسن الحظ لم تستمر هذه الفترة طويلاً لأنه في عام 1935 ذهب إلى الولايات المتحدة واستقر هناك، وكانت شهرته قد ذاعت هناك أيضاً فتم خلق منصب جديد -خصيصاً له- في كلية الطب بلونج أيلاند حيث تولي أستاذية قسم علم النفس الطبي، وفي العام نفسه (1935) بدأت مدرسة ألفريد أدلر في إصدار مجلتها "الجريدة الدولية لعلم النفس الفردي" وفي سن السابعة والستين كان أدلر ما زال يعمل بجد واجتهاد ويعود مرضاه ويستقبلهم ويؤلف الكتب ويحاضر، حتى أنه كان عليه أن يلقي 59 محاضرة في أربع دول مختلفة خلال شهر واحد في ذلك العام، ولقد توفي في 28 مايو عام 1937 متأثراً بأزمة قلبية مفاجئة خلال رياضته الصباحية -المشي- وبعد أن ألقى محاضرة واحدة على طلبة جامعة أبردين سكوتلاندا.

ولعل من المهم أن نكشف هنا أحد مواقف "فرويد" لأنه مثير جداً للاهتمام وذو دلالة خاصة، فعندما أرسل له أحد الأصدقاء خطاباً يتعاطف فيه مع أدلر - بسبب وفاة الأخير- كان رد فرويد بالغ الفظاظ وفيه كثير من الخروج عن اللياقة، وفيما يلي ترجمة دقيقة لجزء من نص خطاب فرويد للرد على هذا الصديق:

"أنا لا أفهم تعاطفك ومشاعرك نحو وفاة أدلر، فأدلر هذا صبي يهودي ولد في ضاحية صغيرة في ضواحي فيينا. وها هو الآن يموت في أبردين وهو يلقي محاضرة في جامعتها، إن هذا أمر لم يسمع به من قبل، ويعتبر - في حد ذاته- نقلة وظيفية عظيمة،

وإثباتًا للتقدم الهائل الذي حققه، وفي رأيي أن العالم قد كافاه بسخاء شديد على ما فعله عندما عارض التحليل النفسي⁶.

واليوم كثير من المستشارين النفسيين تمّ تدريبهم على استخدام طرق علم النفس الفردي في دول العالم: من الولايات المتحدة وكندا، إلى إنجلترا وألمانيا والنمسا وسويسرا، وحتى أستراليا وغيرها من دول العالم.

إن "الشجاعة هي صحة النفس"، هذه هي إحدى الكلمات المأثورة عن أدلر، ذلك أن جميع الأمراض النفسية تقريبًا تعود إلى الخوف خاصة الخوف الذي ليس له ما يبرره من العوامل الخارجية؛ فهو حالة نفسية تعسة تجعل صاحبها يخاف كل شيء، وتتبع هذه الحالة من داخل الفرد وتتسبب في زعزعة نفسه.

ولكن يجب ألا يكون النقص في التربية عذرًا لأن نجبن ونستكين للكوارث التي تقع بنا، فإذا لم نكن قد تعلمنا الشجاعة، وتعودنا عليها خلال مرحلة الطفولة؛ فإنه يجب علينا أن نتعلمها ونشرع في التعود عليها، وأن نغالب المشاكل والصعوبات والكوارث ولا نعترف بالهزيمة أبدًا. وكتاب "الطبيعة البشرية" من أهم كتب ألفريد أدلر الخالدة. في هذا المجلد ألفريد يقوم ألفريد أدلر بشرح وجهة نظر علم النفس الفردي في الطبيعة البشرية، وقد قسم الكتاب إلى جزأين: الجزء الأول، وفيه شرح أساسيات نمو وتطور شخصية الفرد؛ أما الجزء الثاني فقد تناول فيه المؤلف دراسة علم شخصية الفرد، وقسم الشخصية إلى نوعين أساسيين: شخصية هجومية وأخرى غير هجومية، وشرح السلوك الخاطئ للفرد والذي يؤثر على التناغم الذي يجب أن يسود حياتنا الاجتماعية والكيفية التي يمكن للفرد بها أن يطور من نفسه حتى يتأقلم مع المجتمع المحيط به، كما حدثنا عن المشكلات الأساسية الثلاث التي تواجه الفرد في حياته، ألا وهي: العمل، والعلاقة مع باقي أفراد المجتمع، والزواج، كما أخبرنا بطريقته العلمية الفذة والمنظمة عن أهمية التعاون والشعور الاجتماعي في مواجهة هذه المشكلات الثلاث، ولا يخلو الكتاب بالطبع من النقد الصريح والمستنير لنظريات فرويد في التحليل النفسي مع ما هو معروف عن الخلافات بينهما⁷.

مكانة وشخصية عنتر بن شداد في الشعر العربي:

عنترة بن شداد هو شخصية الذي كثيراً ما يروي عنه في السير الشعبية، من قصص وأساطير. يقول عنترة الشرقاوي عن عنترة بن شداد: «فإن الذي يعنينا من شأنه في هذا المقام هو شخصية عنترة بوصفه الفارس الذي أعلن العصيان الاجتماعي والنفسي، لما نشأ فيه من ذلّ العبودية فتمرد على واقعه، وثار على أهله، وجعل حياته سلسلة من مواجهة الخطر، وفي أثناء ذلك كله يختلط عنده البحث عن الحب بالبحث عن الحرية ويصير كل منهما رمزاً للآخر.⁸

دراسة نفسية في شعر عنترة بن شداد على أساس معني:

أحس عنترة الدونية في طفولته حيث كان عبداً وأبوه كان من كبار قومه. وأيضاً نراه في وصول عيلة ابنة عمه يشدد على سواده وأنه يكون عبداً. وفي الحقيقة حينما ينشأ الاضطراب داخل الإنسان عند وجود شيء يهدد جسمه أو عقله أو روحه و... ينتج أنه لا يقدر بعمل عادي، فيميل إلى عمل يوصله إلى ما يريد، كما عمل عنترة في اختياره الكلام الشعري بدل الكلام العادي. وهكذا يظهر الشعور بالنقص في شعر وحياة عنترة وهو يستمد من شعر شكلا ومعنى بدل الكلام العادي لرفع عيبه ونقصه.

دراسة شعر عنترة من حيث المعني

أما من جهة المعني فيظهر سمات نظريه أدلر في ستة مضامين؛ منها: الفخر، والهجاء، والغزل، والحماسة، واللون، والصدق والواقعية، الدقة وسهولة اللغة.

الفخر

يعدّ الفخر من أبرز الأغراض في شعر عنترة. وقد كان الشاعر مدفوعاً إليه دفعاً قوياً، لأنه كان يخوض في معركة ضارية لأثبات نسب، ولإنتزاع حق. وللدرد على خصومه، وللظفر بمحبوبة لا يراه أهلها كفوفاً لها، وللتعويض من لون مفروض عليه.⁹ وفي الفخر نماذج شعرية حاول الشاعر الجاهلي أن يقهر من خلالها الضرورة في الواقع رمزاً، وأن يقدم النموذج المنتصر في مقابل النموذج المنهزم. وإذا تأملنا نموذج الفارس الملتزم بقضايا قومه ومجتمعه، نجد أن الشاعر في إطار الفروسية الملتزمة يقدم الصورة التي تبهر قومه وتؤكد مكانته وتميزه، وتعمق من إحساس المجتمع بمكانته وبما يمثلته من قيم.¹⁰

ولما كان السراة من عبس قد أنكروا عنتره، فقد جعل همّه الأول مفاخرة السراة. وإذا كان عاجزاً عن مجاراتهم في ميدان الأنساب والأمجاد التالدة فهو قادر على قهرهم بقوة الساعد ومضاء السيف، لأن القوة لا نسب لها ولا لون. وكان عنتره في بعض المفاخرة حريصاً على الثماتة والتشفي وعلى أن يسمي فرائسه، فرمحه اعتلق ظهر فلان، وسيفه بقر بطن فلان، فكأنه بهذة التسمية يريح نفسه من حقد قديم كظيم.

تَرَكْتُ جُبَيْلَةَ بِنَ أَبِي عَدِي يَبْلُ ثِيَابَهُ عَلَقُ نَجِيعُ

وَأَخْرُ مِنْهُمْ أَجْرَرْتُ رُحْمِي وَفِي الْجَبَلِيِّ مَعْبَلَةٌ وَقِيْعٌ¹¹

وينقسم مظاهر الفخر في شعره إلى:

أ. الأنفة والزهد في الغنائم: عرف عنتره بين قومه بالترفع عن الدنيا وبالزهد في الأسلاب، وبالقتال المنزه عن الطمع، كان همه أن يدفع الخطر عن قومه، وأن يترك الغنائم لصغار العزائم:

هَلَّا سَأَلْتَ الْقَوْمَ يَا بِنَةَ مَالِكِ إِنْ كُنْتَ جَاهَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيْعَةَ أَنَّنِي أَعْشِي الْوَعْيِي وَأَعْفُ عِنْدَ الْمُغْنَمِ¹²

ويبين لعبه أن قيم الأشياء في جواهرها لا ظواهرها. فالسيف معروق لا لحم له، وإذا اقتحمته عينها حينما رأت شعثه وغبرته فالعطر حلية النساء، أما حلية الرجال فالدرع السوابغ.

ب. الحلم والرحمة: ويذكر كثيراً مدى حلمه ورحمته في أشعاره. هو يريد أن يثبت نفسه بين القوم لكي يتحرر من عبوديته. كان لين العريكة، أليفاً، يستطيب الناس معاشه، يفيئون إلى حلمه:

أَتْنِي عَلِيٌّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي سَمَحَ مَخَالِقْتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ¹³

إن عنتره يلح على الإدلال بالقيم التي يمتلكها، لا بالقيم التي يتوارثها من لا قيمة لهم، ويصرف بصره عن النظر في ثيابه ولونه إلى الفحص عن قلبه، فإن لم يرض بصرها عن شكله ولونه فسترضي بصيرتها عن خلقه.

لا تَصْرُمِينِي يَا عُبَيْلَ وَرَاجِعِي فِي الْبَصِيرَةِ نَظْرَةَ الْمُتَأَمِّلِ¹⁴

ج. ولعل أعلى ما يعليه ويذكر في أشعاره لرفع نقصه وعييه، سيطرته على غرائزه في مجتمع قبلي يصعب فيه كبح الغرائز والشهوات، فهو لا يشرف إذا شرب، ولا يغري المرأة إذا أحب.

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي، وَعَرِضِي وَافِرٌ لَمْ يَكْلَمْ

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصُرُ عَن نَدِي كَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكْرَمِي¹⁵

ويقول: إني إمرؤٌ سمحُ الخليفة ماجدٌ لا أتبعُ النفسَ اللجوجَ هَواها¹⁶

يقول البستاني في عنتره: «شاعر الفخر بلا منازع، شاعر الابتكار والشخصية، شاعر الأنفة والشمم الإنسانية، حتى كادت تتضاءل أمام شاعريته أفاعيل بطشه وشجاعته»¹⁷.

نرى الشاعر يعصر الألم قلبه المنكسر لكثته سيظل كبيراً في حربه وطعانه غنياً بحبه ألباً في معاملته وشهماً في جسارته، ولينكر فروسيته من ينكر وينسأه من ينسي بطولته وشجاعته، فالمعارك والوقائع هي الفيصل بين الأقوال والأفعال، ففيها تبان الرجال. ولعل من أروع فخره ما قاله عند ما وقع في الأسر، فتتطلق زفرات الحنين وأهات الشوق إلى الأحبة لؤلؤاً يتدحرج على وجناته فيقول:

فَخَزُّ الرِّجَالِ سَلْسِلٌ وَفُيُودُ وَكَذَا النِّسَاءُ بَخَانِقٌ وَعُقُودُ

وَإِذَا غُبَارُ الْخَيْلِ مَدَّ رَوَاقَهُ سُكْرِي بِهِ لَا مَا جَنِي الْعُنُقُودُ

يَا دَهْرُ لَا تُبْقِ عَلَيَّ فَقَدْ دَنَا مَا كُنْتُ أَطْلُبُ قَبْلَ ذَا وَأُرِيدُ

فَالْقَتْلُ لِي مِنْ بَعْدِ عِبْلَةَ رَاحَةَ وَالْعَيْشُ بَعْدَ فِرَاقِهَا مَنْكُودُ

يحق له الفخر بهذه الأغلال والقيود الموجهة لندنها تزين عنقه كما تزين الأساور والحلي أعناق النساء، فأهلا بالموت الذي فيه راحته بعد عبلة. وفخر شاعر بنسبة القيود والسلاسل يدل على عقده النفسية، وهو يريد أن يرفض العبودية ويظهر نفسه في قالب الشجاع الباسل.

بدراسة في ديوانه يتضح بأنه قد وجد نفسه في مجتمع عنصري، تتفاخر فيه القبائل فيما بينها بالمناقب، وتتأبذ بالمثالب، فما البال بنظرته للعبيد السود، تلك النظرة التي كانت تتطوي على قدر بالغ من الامتهان، لكن نفس عنتره كانت تتطوي على قدر بالغ من الإباء. لكن تأتي الظروف التي تجبر السادة البيض على أن يسعوا إلى العبد الأسود طلباً لنجدته والتماساً لعونه. والشاعر يستفاد من شجاعته ليشفى غليل صدره تجاه قومه وليداوي الجروح التي قد حقر واستهزء به.

الهجاء

يتصل الهجاء بموقف الشاعر من مجتمعه، وما يتضمن من قيم، موضوع من أخطر الموضوعات في الشعر الجاهلي هو الهجاء.

ففي الهجاء نرى الشاعر يرسم لخصومه النموذج القبيح، فيصفهم بكل صفات القبح، ويسلبهم كل الصفات الفاضلة أو بعضها. فالهجاء سلاح لا يقل أثره عن الأسلحة التي يستخدمها الجاهليون في حربهم.¹⁸

نحن نعرف أن الغزو والنهب في الجاهلية كان دائراً، وشاعرنا عنتره يرى هذا المجال لكي يدافع عن نفسه ويثبت نفسه تجاة قومه التي لا يعرفون له اعترافاً.

الفخر موصول بالهجو، ولما كانت عنتره فارس زمانه فلن يكن يكتفي بالتعريض، وإنما كان صريح الهجو. بما أن عنتره يريد أن يثبت نفسه على قومه فلا بد أن يكون بطلا لقومه.¹⁹

ولعلّ الهجاء في العصر الجاهلي، كان على ضربين: هجاء قبلياً وهو الأكثر شهرة والأوسع انتشاراً، ثم هجاء شخصياً، يوجهه الشاعر إلى أحد خصومه، ويكون موضوعه الاحتقار والإستهزاء.²⁰

من أقسام الهجو القبلي في ديوانه هجاؤه لبني زبيد، فرماهم بالضعف والخوف، وسخر من هريهم، إذ ولوا الأدبار والرماح تجتاح أقباءهم:

لقد وجدنا زبيداً غير صابرةٍ يوم النقينا، وخيل الموتِ تسبقُ

إذ أدبروا فعملنا في ظهورهم ما تعملُ النارُ في الحلفي فتحترقُ²¹

وكان عنتره في بعض هجائه يأتي بصور ساخرة، تصيب مقتلاً من الخصم. ويهجو الشاعر بني طيء الذين أغاروا على بني عيس وقد فرق جموعهم وسبا نساءهم قائلاً:

وداسوا أرضنا بمضمراتٍ فكان صهيلها قبلاً وقالوا

وراحت خيلهم في وجه سيفي خفافاً بعدما كانت ثقالا²²

إنّ هؤلاء الأعداء الذين هاجمونا بخيول معدة للقتال، كان صهيلها كلاماً في كلام، إنها لم تؤثر فينا، لأن فرسانها جبناء، والفرس من وراء خيالها، فرجعت دون فرسان.²³

ومن هجائهما خاطب به إخوته بني زبيبة هاجباً أياهم ناسباً إليهم التخاذل والإنشغال بملء بطونهم فيقول:

أبني زبيبة ما لمهركم متخذداً وبطونكم عجزُ

لما غدوا وغدت سطيحتهم مَلَأِي وَبَطُنُ جَوَادِهِمْ صِفْرٌ²⁴

يتساءل الشاعر ساخرًا من بني زبيبة: هل من المعقول، أن تعزل خيولكم وتضعف وأنتم تملأون بطونكم حتى تتخم؟ ليس هذا من صفات الأبطال الشجعان، بل العربي يفضل جواده على زوجه وأولاده، وحتى نفسه، كيف لا؟ فهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق النصر وعزة النفس والكرامة.²⁵

هذا هو موقف هجاء الشاعر لكي يشجع قبيلته وأبوه حتى تحرره من قيود العبودية التي أذاهه سنين طوال. وكان للهجاء دوراً بارزاً في نيل الحرية. ويظهر عنتر بن شداد هكذا بطلاً، بما أنه يعتقد إن الحرية هي الضمانة للوجود، وهذا ماجعل بعض الشعراء يفخرون بأنهم لا يتحضنون بشيء سوى حريتهم. ولأن الحرية تعني جوهر الوجود للقيمة. فإنه لا يقبل ما يسميه الضيم والدنية والذل لأنها إنتقاص من حريته والتلاب لها.

الغزل

الغزل قول وفعل، فيه وصف الحسن وإطراؤه، ومعابثة المرأة ومرآوتها، وفيه الجمع بين التغمي بالجمال والمداعبة المفضية إلى الوصال. وهو بهذا المفهوم لا يخص الشعر والشاعر.²⁶

أحبّ عنتره عبلة بنت عمه مالك بن قراد العبسي، وأنّ عمه وعده بها، ولكنه لم يف بوعده، وإنما كان يتنقل بها في القبائل العربية لبيعها عنه. والشاعر يجد السبيل الوحيد في وصول العبلة أشعاره التي ينشد من صميم قلبه المتميم.²⁷

يظهر الشاعر في هذا اللون من الشعر كرجل نبيل شريف لا يصبُّ على مناضلة سوط السبِّ والهجاء، بل يذكره بالكرامة والشرف الحسن، كما يعدّ غزله مثلاً رائعاً للحب العذري الذي يموج بعاطفة قوية صادقة، ويشتعل بأشواق عميقة ولوعات مؤلمة، لا ينساها العنتر في الحضر والسفر، والسلم والحرب. ومن أمعن في غزله، يرى أنّ الحب هو الذي ساق العاشق اللهفان إلى استقبال الموت واقتحام المعارك وإبداء الفتوة

والبطولة حتى يرضي حبيبته. ولقد سبق إلى عرض بعض صور الغزل في ثوب الحماسة وأجاد فيه بحيث لا يشقّ غباره، فنرى «لامارتين» يعجب شديداً بقوله:
ولقد ذكرْتُكِ، والزَّماحُ نواهُلُ مَنِّي وبيضُ الهنْدِ تقطُرُ من دَمي

فوددتُ تقبيلُ السيوفِ لأتَّها لمعت كَبارقُ تُعركُ المبتسم²⁸

ولعل من الطريف أن نلاحظ في هذا المقام أن عنتره حين يصف محبوبته فإنه يَلح على وصفها بالطبي الشادن أي الصغير؛ فهو لايميل إلى تصوير حبيبته على طريقة امرئ القيس تعبير عن حنينه الأوديبى لأمه، فإن تشبيهات عنتره هنا تصدر من مواقف نفسي آخر، فإن تشبيهات عنتره بالرشأ وما إليه، والإلحاح عليها يمكن تفسيرها في ضوء موقفه من أبيه الذي أنكر بنوته، فعنتره رغم كل هذا البطولة والشجاعة لايزال في إعماقه يحن إلى طفولة سعيدة يكون فيها موضع الرعاية والتقدير (ليس بتوأم). وفي مثل هذا المجال النفسي لاتقوم فكرة الأطفال التي شغلت امرئ القيس، بل فكرة الطفولة نفسها التي تقتضي الرعاية والحب والاعتراف الذي حرم منه.²⁹

وأنة أحب عبلة لاسواها بنخوة الفارس لا بشهوة العاشق حباً يرقى برجولته، ولا يراودها عن لذة ترى فيها مساساً بعفتها فكان غزله يصدر من قلب متيم بحب عبلة حباً شريفاً وشديداً، وهي لايرغب في سواها وهي العالمة بهذه الرغبة الملحة الأمانة:
ولئن سألتَ بذاك عبلةً خبِرتَ أن لا أريد من النساءِ سواها

وأجيبها إِمّا دعت لعظيمةٍ وأغيثها وأعِفَّ عمّا ساها

وحبه لعبلة صادق وسخي حتى يطيب له ويسره أن يبذل لها نفسه بكل رضا، وساعده عقله الكبير وحكمته أن يبتعد عن كل مايسوؤها، ويتجنب كل ما يضايقها، أليس هذا علماً بخفايا المشاعر الانسانية بوركت في نقل المشاعر ووصفها؟ وهذا يسمي منهج التداعي الحر في علم النفس عندما يطلق عنتره العنان للنفس في أن تعبر وتقول ما

يخطر ببالها من مشاعر وأحاسيس دفيئة، فهذا الحب هو حب فيه معاناة وتألم، لان الحبيبة بعيدة، وأن كانت صورتها أبداً حاضرة يمكن استدعاؤها من محزون الذاكرة، إلا أن عنتره صبغ الغزل بصبغة الألم الذي يمازجه شيء من اليأس والقنوط، فاللوعة عنده ناطقة بلسان الشوق.³⁰

هو يباح حبه لمحبيته بل يصل إلى حبه ويذوب قلبها وهو يكون عبد أسود مضطهد وهي حرة بيضاء منعمة. ونزعم أن جوهر عشقه الألم والحرمان لأسباب كثيرة أولها الفرق بينه وبين عبلة، وثانيهما الحسد، فهو يحسد لداته على أنسابهم وحرمتهم ولداته يحسدونه على حب عبلة. وثالثها إبتعاد محببته عنه، ولوصول إلى عبلة يأتي بأغزال رقيقة ويكون الشاعر ناجح في هذا السبيل ويستطيع أن يثبت نفسه.³¹

الحماسة

من المشكلات التي تتصل بموقف الشاعر من المجتمع، مشكلة الحرب والسلام، واللافت للنظر أن صورة المجتمع في الشعر الجاهلي تقتزن غالباً بالحرب والقتال.³²

ويرى الحوفي أنه «قد كان الطيش خلقاً شائعاً في البادية، وذلك طبيعي حيث لا حكومة تردع ولا قوانين تمنع، وحيث يعتقد كل امرئ في نفسه السمو والسيادة، ويتوقع كل الفرد أن تنصره قبيلته وعشيرته، فيثور معتمداً على أسناده وأعوانه».³³

يمكننا أن نقول الكثير عن الحرب وعن بشاعتها وقسوتها وعن عواملها وأسبابها (النفسية والاجتماعية والإقتصادية...إلخ) ولكنها بنسبة عنتره وسيلة لإثبات النفس والشخصية. هناك رؤية في فهم ماهية الحرب وتأويلها هي اعتبار مسألة جمالية وشعرية ترتبط بموقف الوعي ورؤيته للجمال والقبح وللعلاقة المعرفية والوجودية بينهما كما تتظاهر تشكياً وقيمة ومعني يستوعب جانباً أساسياً من الإنسان الجمال العربي بوصفه وجوداً في العالم، وربما تبدو هذه الرؤية غريبة بعض الشيء عن السياقات التي تتناول موضوع الحرب عادة كالحماسة والبطولة والفروسية العربية. لكنني أعتقد أن أهمّ العوامل التي تفسرّ الحرب هو تلك الرغبة العارمة في اكتشاف الإنسان لذاته وتأسيسها في العالم.³⁴

لا نغلو إذا قلنا إن أهمّ فارس حفظت به ذاكرة العرب في أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنتر بن شداد،³⁵ وهذا يرجع إلى العقدة النفسية التي فرض عليه أبوه ومجتمعه بسبب لونه وعن كونه ابن أمة حبشية سوداء.

ومن ثم لم يعترف شداد بعنتره ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة في حروب داحس والغبراء وغيرها. وقد ظل يذكر هذا الجرح الذي أصابه في الصميم.³⁶

يعدّ شعره الحماسي صورة حسية متحركة لقتاله، في نضاله وطعنه وضربه واعتناقه، فكل ذلك يعكس على أدبه وينتقش أدقّ اللحظات من صراعه وبطولته فيه.

يتجلّى نظرية أدلر في أشعار الحماسية ظهوراً واضحاً حيث الشاعر يستفاد من شجاعته لرفع عقده النفسية، فنشأ الشاعر قوي الشكيمة واشتدت ساعده، فلم يعد أحد يجرو على التحرش به، والتجاوز على حقه، لكنه ترقب الفرص لأجبار أبيه على الاعتراف به وإحاقه بنسبه، وما إن عرف عنتر بالشجاعة حتى راح يقود الكتائب في غزوات متوالية على أعداء قومه ويصفهم في أشعار الحماسية. ولكن تلك الانتصارات لم تمنح ولم تزل الاحتقار له من صدور أبناء قومه، بل جبلت وأضافت إليه الحسد، ففاض حاسدوه بالتعبيرات والشتائم، فكان ذلك مبعث ألم حياته كلها.

وهو يستفيد من كل بيت ويقف على جثة العدو وقد طعنه بالرمح قاتلة، ويصرخ فيه أن يتأمله في جلال أناة وجبروتها. وهو يخاطب العدو والدهر نفسه لكي يؤسس ذاتيته في دوامة الرعب. ولقد ذهب بهذا الفكرة، إلى أن يباليغ في إظهار جبروته بحيث تبدو لأول وهلة كأنها نوع من الإلتذاذ السادي بالقتل والتدمير.³⁷

فمن ذلك نجد في أشعاره :

ومدجج كره الكُماة نزاله
لا مُمعن هرباً ولا مُستسلم

جادت يداي له بعاجل طعنة
بُمتقف صدق القنّة مقوم

كمشت بالرمح الطويل ثيابه
ليس الكريم على القنا بمحرم

وتركته جزرُ السَّبَاعِ يَنْشَنُه
ما بينَ قَلَّةِ رَأْسِه والمِعْصَمِ³⁸

ويتكلم في وصف الأسلحة وصليل سيوفها وطعنات رماحها، ويعتمد على وقائع تاريخية، ويدع لخياله أن يضخم الحوادث الحربية ويصبغها بالصبغة الملحمية، كما يضخم الجو الحربي ويرسم أبعاده بأروع التفاصيل، فإذا هي في جوها الملحمي غير مكروهة ومحجبة للنفوس:

إذا ما مشوا في السابِغَاتِ حَسِبْتَهُمْ سَيُولًا وَقَدْ جَاشَتْ بِهِنَّ الأَبَاطِحُ³⁹

ومن سمات شعر عنتره أيضاً، أنه كان يتميز بأسلوب تضخيم الخصم، بهدف تعظيم ذات الشاعر من خلال ذلك. فنحن نرى خصمه، كيف يقبل مدججاً بالسلاح، يفر من وجهه الفرسان، لأنه شجاع مقدام، لم يتعود الهروب أو الفرار من المواجهة ولا الاستسلام لخصومه الذين يحيطون به بقوة. ويسدون عليه الدروب من كل الجهات.⁴⁰ إن الشاعر هنا يشكل لنا صورة غاية في القسوة لقتيله، هو يريد أن يثبت شجاعته ويرتفع ضعفه وحقارته بهذا الشجاعة الذاتية. وهو كان ناجحاً في هذا المجال. ويتحدث إليها عن فروسيته ويسالته في الطعن والنزال، ثم يأتي بتحدث عن كرم نفسه وشرف طباعه:

يخبرك من شهدَ الوقائعَ أنني أغشَى الوَغِي وأَعْفُ عندَ المَغْمِ⁴¹

فهو يقدم في أهوال الحروب وخطوبها، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم وكأنه ليس صاحبها. إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار وحريته وما يزال يحدثنا في شعره عن كرامته، وشعوره القوي بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان، ويقول:

ولقد أبيتُ على الطَّوي وأظَلُّه حتى أنالُ به كريمة المأكَلِ⁴²

فجاءت لغة عنتره في شعره الحماسي متوثبة متدافعة، ينفخ فيها النفس الحماسي البطولي، فتجري مع طعنات الرماح وجلبة المقاتلة واندفاع الخيول في موسيقي تحمل على الحماسة وتدفع إلى الإقدام. ويمتلئ شعر عنتره الحماسي بالانفعالات النفسية والهجانات العاطفية التألمة الشاكية المسترضية.

وعنتره بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة، وكان لهذه الغزاة أثرها الخطير في حياة عنتره. إذ نقلته من عبد يرعي الغنم ويزري به لداته من أشرف العيس إلى سيد حر، يقود الكتائب في وقائع داحس وغبراء، ومن خادم يعيش بين الإماء إلى فارس يهابه فرسان الحي ويحسدونه. ونرى الشاعر الفنان كيف تجاوزت براعة الفن في نقل مشاعره عندما تصف شجاعته في الحرب.

اللون:

يعد اللون بنيةً أساسيةً مهمةً في تشكيل القصيدة الشعرية، وركيزةً هامةً تقوم عليها الشكل والصورة الشعرية، من الشكل إلى المضمون، فاللون يحمل قدرًا كبيراً من العناصر الجمالية، وإضاءات دالة تعطي أبعاداً فنية في العمل الأدبي على وجه الخصوص.

إنّ اللون يمنح الحياة والوجود قيمةً لا يمكن إغفالها، فهل نتخيل أنفسنا نرى لوناً واحداً؟

إنّ هذا التخيل يدفع النفس إلى النفور والملل، فلا حياة بلا لون، ولا يمكن إن ترى هذا العالم وهذه الطبيعة المرسومة فيه بألوانها الزاهية التي تبعث الإحساس في النفس بلا لون، كما لا يمكن أن نعيش بلا ضوء.⁴³

إنّ الألوان تحيط بنا من كلّ اتجاه، تعيش معنا ونعيش معها كلّ يوم. فاللون سرّ عميق، وله ظهور بارز من الناحية الجمالية بائن للعين، التي ترى القبح والحسن وتميز بينهما فالصلة بين عالم الأبصار وعالم الشعور صلة وثيقة، وارتباط قوي يجمع بين الحسّ والذوق، وبين الإمتاع والاستحسان.⁴⁴

ويرتبط اللون بمؤثرات مهمة، وهي التي تحدد سلوك الإنسان، وهي البيئة التي تحيط بالإنسان وتؤثر به ويتأثر بها، وما ينبعث من داخله من انفعالات وأصداء، وهو ما

يرتبط أشد الارتباط بالإحساس، فإدراك اللون يشكّل جانباً مهماً من سلوك الإنسان، ويتخذ بثلاثة عوامل هي: البيئة أو العالم الخارجي، والعالم الفسيولوجي الداخلي، والعالم السايكولوجي الداخلي الذي يتضمّن متغيرات كثيرة من بينها الانفعالات، وأنّ اللون يرتبط بالإحساس والسرور أو نقيض مسرور.⁴⁵ فهناك ألوان تثير في النفس استجابة وانفعالاتاً خاصاً، فالأحمر مثلاً غالباً ما يرتبط بالإشارة إلى الغضب أو الدم والقتل.

وسواد الجلد هو أحد المواقف النهائية التي فرضت على عنتره بحكم الوراثة، أو أحد الأسوار العالية التي وُضعت حياله، وهو لا يملك إلى تخطيطها سبيلاً. وكان يؤلمه تناقض قومه، وذلك حين يعترفون بمكانته في ساعة الحاجة، ثم لا ينفكون يعيرونه بما ورث من سواد:

يُنَادُونَنِي وَخَيْلُ الْمَوْتِ تَجْرِي مَلِكًا لَا يَعَادِلُهُ مَحَلٌّ

وقد أمسوا يعيرونني بأمي ولوني، كلما عقدوا وحلّوا⁴⁶

شكّل اللون مرتكزاً في القصيدة العربية القديمة، ولعب دوراً مهماً في فضاء الصورة والإستعارة والكناية، إذ يكون النص الشعري قادراً على تسخير مفرداته في خلق فضاء شعري يحمل صوراً وألواناً موحيةً، ويكون اللون عماد الصورة وأداة فنية تقوم بها القصيدة وهو مايشكل لغةً جديدةً تحتضن الإيحاء.⁴⁷

وعند عنتره بن شداد نجده يعقد القرينة بين ظلام الليل ولحظة البين، وبين الآلام النفسية التي تتجسد في مشاهد الفراق وصورة الوداع وحالة السكون المرتهنة به، ولعلّ اللون الأسود قد جسد في أعماق نفسه نمطاً من التعقيد والبغض، وسبب له ضرباً من الانزعاج والألم، بسبب من عبوديته، ولعجزه المتكرر عن تجاوز الطبقة من وراء ذلك اللون الذي خلعه على مشهد الليل، حيث يصف الليل الفراق:

إن كنت أزمعتِ الفراقَ فإنما زُمتَ ركابكم بليلٍ مُظلمٍ⁴⁸

فكان منطلق وحدة التصوير عنده يبدأ من هذا السواد الذي ربطه برحيل محبوبته، وكان الليل شاهداً على ذلك الرحيل، بل كان رمزاً من رموز الغموض، ومؤشراً من مؤشرات المجهول، وإنذاراً بإحتفاء الركب في أعماقه السحيقة المبهمة. وهو ما يتخذه وسيلة تصوير في مشهد النبين والغراب في نفس المعلقة:

فيها اثنتان وأربعون حلويةً سوداً كخافية الغراب الأسحَم⁴⁹

وبعدها راح يوغل في معالجة صورته منذ وصف المظلم، زيادة في الدلالة على واقعه النفسي القاتم، وقصداً إلى التعبير عن بعض ما يحمله له من بغض، وما يشبع بين جوانحه من مخاوف وفزع ودهشة إزاءه، ومن ثمّ أعقب المشهد بتكرار القرينة اللونية، التي تكمل نفس الإطار الدلالي، حين تحدث عن الغراب (الأسود) في تشبيهه للنوق التي رحلت بالقوم وفي صحبتهم المحبوبة (الظعينة) وقد اشتدّ سوادها، فكان السواد رمزاً لمزيد من غموض ذلك المجهول الذي يخشاه ويترقبه، ويبدو إزاءه أشدّ إغتراباً وأكثر فزعاً. ولا شك أن سواد الليل أو الغراب أو النوق، أو البحث عن رموز السواد في غيرها جميعاً، يلتقي حول بورة واحدة أساسها الإحساس المتضخم بذلك الغموض، وما يبعث عليه من القلق الذي سيطر على نفس الشاعر حتى بدا مغترباً إزاء كل ما حوله على إطلاقه، سواء أتوقف بهذا الإغتراب إزاء القوي الكونية حين جسدها في مشاهد الليل والنهار، أو في تناقضات الظلام والضياء، أو ما سحبه منها على مشاركة القرائن الأخرى له في همومه، على غرار ما عرضه من خلال الغراب أو النوق على السواء.⁵⁰ أما اللون الأحمر ارتبط منذ القدم بدلالة غلبت عليه وهي الإيماء إلى لون الدّم، وما يعني من الصراع والقتل والموت، والثورة والحرب، ونرى في معلقته حيناً يريد أن يصف شجاعته:

وحليل غانيةٍ تركتُ مُجدلاً تمكو فريصته كشدق الأعلم

سبقت يداي له بعاجل طعنةٍ ورشاشُ نافذةٍ كلون العندم⁵¹

يقول الشاعر ورب زوج امرأة بارعة الجمال مستغنية بجمالها عن التزين قتلته وألقيته على الأرض وكانت فريسته تمكو بانصباب الدم منها كشدق الأعم. ثم يستمر طعنته طعنة في عجلة ترش دماً من طعنة نافذة تحكي لون العندم.

فالأحمر والعندم هو الدّم، وهو سبيل للتخلص من الذلّ والحقارة المفروضة، وهو سبيل الانتصار والكرامة المنشودة، كما دلّ اللون الأحمر على الحرب، بكلّ ما توارد من نار ودماء، وعلى المشقة وشدة الخطر.

أما اللون الأسود يحظي بمساحة واسعة في قصائد الشعراء، ويعود ذلك إلى عوامل متعددة قد تكون للحالة السوداوية التي عاشها الإنسان العربي، في سلسلة متتالية من النكبات والهزائم والموت.

وعلى هذا النحو تثاررت صور الألوان أمام نفسية الشاعر، تمنى الشاعر لو استطاع أن يقتلع جذور ألوان الذلّ والهوان من نفسه، إذ قلّما يستطيع الإتساق معه، أو التفاعل مع معطياته إلا أن يبدو أمامها مستسلماً متخاذلاً فزعاً، ويبدو واقع نفسية الشاعر المهترئة في الألوان حين يبدو عاجزاً عن إعلان التحدي، متقوقعاً في إطار ضيق من الطموح إلى الهروب، والركون إلى اليأس. وهكذا يدافع الشاعر عن نفسه تجاه قوم تعبیره بالسواد.

الصدق والواقعية، الدقة وسهولة اللغة

نرى عنتره يأتي من قوة الملكة الشاعرية فوق ما أوتي من القوة الباطشة ما ثبت في ميدان الشعور ثباته في حلبة الوعي. فنرى في شعره الخصائص الفنية التي تتسم فيه.

الصدق والواقعية

لعلّ أوضح صفة يقف عليها الناظر في شعر عنتره صدق هذا الشعر وواقعيته. فهو صادق في أفكاره مخلص لفلسفته التي يجبه بها مذاهب الآخرين، صريح في الدعوة إلى ما يؤمن أنّه الحق.⁵²

فنستطيع أن نرى هذه الصداقة في أشعاره تجاة أمّه، فهو موقف مختلف تماماً، إذ قد ينطوي على شيء من الإزدراء لها والسخرية بها، بحيث لا نحس من الشاعر تعاطفاً معها، أو حنيناً إليها، وهذه ما يأخذه عليه كثير من النقاد.⁵³

فهو يقول:

وأنا ابنُ سوداءَ الجبينِ كأنها ضَبْعٌ ترعرعَ في رُسومِ المنزلِ

الساقُ منها مثلُ ساقِ نعامِ والشعرُ منها مثلُ حبِّ الفُلفلِ

و هذا الموقف يختلف في جملته وتفصيله عن موقف امرئ القيس، الذي دارت في شعره فكرة الأمومة والأدبية. نرى في موقف عنترة العقدة النفسية التي يعاني منها الشاعر ويتذكر بصدافته وصراحته الذي نجد في كلامه.⁵⁴ فقد نرى الشاعر يعبر عن كل شيء حتى عما يسوءه. كحديثه عن زراية الرجال به، وإعراض النساء عنه.

الدقة وسهولة اللغة

الشاعر يسعي بأن يصور أدق تصوير من نفسه لكي تقع في الأنفاس، خاصة حينما يريد أن يظهر عن شجاعته وكرمه. أما في وصفه لفرسه، نرى أشد الدقة حيث يقول:

فازورَّ من وقع القنا بلبانه و شكَا إليَّ بعبرةٍ وتحمُّم

لو كان يدري ما المحاورَةُ اشتكي و لكان لو علمَ علمَ الكلامِ مُكَلِّمي

فالشاعر يحس بالآلام فرسه، ويتعاطف معه، وكأنه يحدثه بما يلاقي من ألم الطعان في صدره؛ وهو تعاطف مشهور في حياة عنترة يشير إليه أكثر من مرة بأكثر دقة. وذلك مثل قوله لامرأة له من بجيلة كانت لاتزال تذكر خيله، وتلومه في فرس كان يؤثره على خيله ويطعمه ألبان إبله:

لا تذكرني، مُهري، وما أطعمته فيكون جلدك مثلَ جلدِ الأجرِبِ

إِنَّ الْغَبُوقَ لَهُ، وَأَنْتِ مَسْوءَةٌ فُتَأَوَّهِي مَا شئتِ تَمَّ تَحْوِي

وهكذا يفضل الشاعر فرسه على زوجته، فينذرهما بالبعد عنها، إن هي ذكرت هذا المهر، وما يطعمه.⁵⁵

في لغة عنتره سهولة ولين ووضوح. فلو قست أسلوبه بأساليب الشعراء في زمانه لوقفت على هذه الخصيصة. ولذلك سهل على الؤصاعين في العصور المتأخرة إن يقلدوا شعره .

الغرض من إنشاد الشعر لدي عنتره هو إظهار براعته عن العيب الذي قد فرض عليه مجتمعه. فلهذا يأتي بلغة سهلة لكي تقع في النفوس وأن يرضي عامة الناس، وبهذا الطريق مهد الطريق لنيل حريته، رغم ما نرى الشاعر استطاع أن ينتزع إقرار أبيه بنسبه وحريته في موقف بز فيه الأحرار. فهو يفتخر بنفسه بلغة سهلة لكي يدركها الخاص والعام فيقول:

لَوْ صَلَّتِ الْعُرْبُ يَوْمَ الْوَغْيِ لأبطالها لها كنتُ للْعُرْبِ كَعَبَهُ⁵⁶

يذكر الشاعر اعتداده بنفسه وبهمته الدرجة التي يضيفي فيها على نفسه ظلاً من القداسة ويصرح في مكان آخر عدم مثلية الآخرين له من خلال الإشارة إلى ذكره الذي محا ذكر الآخرين بلغة سهلة:

مَحَوْتُ بِذِكْرِي فِي الْوَرِيِّ ذِكْرَ مَنْ مَضَى وسدْتُ فلا زيد يقالُ ولا عمرو

وقد رافقه الألم طول حياته يعمل في عقله فيزيد من أفكاره ووساوسه النفسية ويؤلم شخصيته ويصقلها، ويعمل في خياله فيصفيه، ويعمل في قلبه فيفرق عاطفته ودوافعه، وكان عنتره صادقاً في تفكيره وخياله وعاطفته وشعوره، وظهر على صدقه صبغة فطرية ساذجة، فراح يتحدث بلواعج نفسية وكأنه عالم نفسي يستبطن مشاعره -أي يتأمل نفسه من الداخل فيقول ويصف ما بها من أنين وحرقة وألم وحرقة وهذا هو التأمل الذاتي ووصف المشاعر بلغة سهلة- من غير رثاء ولا تلون.

النتيجة

توصّلت المقالة إلى مجموعة من النتائج وفيما يلي بيانها:

- عنتره بن شداد شاعر جاهلي تأثر بالعقدة النفسية التي قد فرض عليه المجتمع، وراح يكتب عن همومه، وعن كل شيء جعله عبداً ولم يعترف به إلا بعد إظهار الشجاعة في معركة ضارية ولذلك يختار في شعره كل أساليب لرفع عقده النفسية.

- يعد الفخر من أبرز الأغراض في شعر عنتره، لأنه كان يخوض في معركة ضارية لإثبات نسب، ولإنتزاع حق. وللد على خصومه، وللظفر بمحبوبة لا يراه أهلها كفوّاً لها، وللتعويض من لون مفروض عليه. يدور الأشعار الفخرية في ديوان عنتره حول: الف: الأنفة والزهة في الغنائم. ب: الحلم والرحمة. ت: سيطرته على غرائزه في مجتمع قبلي يصعب فيه كبح الغرائز والشهوات.

- كان للهجاء دوراً بارزاً في نيل الحرية. هجاء سلاح لا يقل أثره عن الأسلحة التي يستخدمها الجاهليون في حربهم. فالشاعر يرسم لخصومه النموذج القبلي، فيصفهم بكل صفات القبح، ويسلبهم كل الصفات الفاضلة.

إنما كان صريح الهجو، بما أن عنتره يريد أن يثبت نفسه على قومه فلا بد أن يكون بطلاً لقومه. كان على ضربين: هجاء قبلياً، ثم هجاءه شخصياً، يوجهه الشاعر إلى أحد خصومه، ويكون موضوعه الاحتقار. أما هجاءه قبلياً كان له أشد تأثيراً في تثبيت شخصية الشاعر.

- حينما يحس الشاعر بعقدة وخلاً في حب عبلة يأتي بأغزال رقيقة، أول ما يطالعنا في غزل عنتره مقطعات يسبقها فراق، ويصحبا تذكر وعتاب وملاومة. يعدّ غزله مثلاً رائعاً للحب العذري الذي يموج بعاطفة قوية صادقة، والجدير بالذكر بأن عنتره حين يصف محبوبته فإنه يلج على وصفها بالطبي الشادن أي الصغير؛ فهو لا يميل إلى تصوير حبيبته على طريقة امرئ القيس تعبر عن حنينه الأوديبي لأمه، فإن تشبيهات عنتره بالرشأ وما إليه، والإلاح عليها يمكن تفسيرها في ضوء موقفه من أبيه الذي أنكر

بنوته، فعنتره رغم كل هذا البطولة والشجاعة لا يزال في أعماقه يحن إلى طفولة سعيدة يكون فيها موضع الرعاية والتقدير (ليس بتوأم). وفي مثل هذا المجال النفسي لا تقوم فكرة الأطفال التي شغلت امرئ القيس، بل فكرة الطفولة نفسها التي تقتضي الرعاية والحب والاعتراف الذي حرم منه. ومهما يكن الأمر فإن حبّ عبلة كان له تأثير عظيم في نفس عنتره وشعره؛ وإن عنتره، خلّد عبلة بشعره، وجعلها إحدى عرائس الشعر، فإن عبلة هي التي صيرت عنتره، بحبها.

- كان الحرب والحماسة بنسبة عنتره وسيلة لإثبات النفس والشخصية. إن أهمّ فارس حفظت به ذاكرة العرب في أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنتره بن شداد، وهذا يرجع إلى العقدة النفسية التي فرض عليه أبوه ومجتمعه بسبب لونه وعن كونه ابن أمة حبشية سوداء. كان يتميز أسلوبه بتضخيم الخصم، بهدف تعظيم ذات الشاعر من خلال ذلك. وهو يستفيد من كل بيت ويقف على جثة العدو وقد طعنه بالرمح قاتلة، ويصرخ فيه أن يتأمله في جلال أناة وجبروتها. وهو يخاطب العدو والدهر نفسه لكي يؤسس ذاتيته في دوامة الرعب. ولقد ذهب بهذا الفكرة، إلى أن يببالغ في إظهار جبروته بحيث تبدو لأول وهلة كأنها نوع من الإلتذاد السادي بالقتل والتدمير.

والأخير كان لهذه الغزاة أثرها الخطير في حياة عنتره. إذ نقلته من عبد يرعي الغنم ويزري به لداته من أشرف العبس إلى سيد حر.

- يعد اللون بنية أساسية مهمة في تشكيل القصيدة الشعرية، وركيزة هامة تقوم عليها الشكل والصورة الشعرية، وسواد الجلد هو أحد المواقف النهائية التي فرضت على عنتره بحكم الوراثة، أو أحد الأسوار العالية التي وضعت حياله، وهو لا يملك إلى تخطيطها سبيلاً. نرى قاموس الشاعر يقف بصفة خاصة عند اللونين الأسود والأحمر، ويكثر من كلمات العبد والغراب والمسك والكحل بالإضافة إلى النار والبرق والغضب والسيف والغبار والدم والشرار. والناقد يرمي من تسجيل هذه الظاهرة إلى ربط شعره بفكره، ولغته بعقدته، وهو ربط مقبول بسبب عقدة الحقارة التي قد فرض عليه مجتمعه.

- أوضح صفة يقف عليها الناظر في شعر عنتره صدق هذا الشعر وواقعته خاصة حينما يتحدث عن أمه. نرى أنه كان يجد في ذكر هذه الأمور حرجاً عظيماً،

وكان يجد فيها لذة، لأنه يذكرها ليدحضها، ويقرّ بنشأته المتواضعة الأولى ليفخر بما أنجز. والشاعر يسعي بأن يصوّر أدقّ تصوير من نفسه لكي تقع في الأنفاس، خاصة حينما يريد أن يظهر عن شجاعته وكرمه. يأتي بلغة سهلة لكي تقع في النفوس وأن يرضي عامة الناس، وبهذا الطريق مهّد الطريق لنيل حريته.

- تتجلى عقدة النقص بكل خصائصها في أشعار عنتر بن شداد شكلاً ومعنى وهو يتأثر بها تأثراً يتزامن مع نفسيته.

هوامش:

- ¹-اسماعيل،عزالدين.(1979) التفسير النقدي للأدب، بيروت: دارالعودة،13
- ²-فيروزبور، مرضيه.(1392) دراسة النماذج البدئية في شعر بلند الحيدري، جامعة شيراز،17
- ³-أرسطو، (د.ت) فن الشعر، ترجمة: ابراهيم حمادة، منتديات مكتبة العرب،13
- ⁴- پروچسكا، جيمزاو(1957) نظريه هاي روان درماني، تهران، نشر رشد،111
- آدلر، ألفريد.(2005) ترجمة عادل نجيب بشري، الطبيعة البشرية. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة،⁵ ٧
- ⁶- آدلر، 2005:10
- ⁷- المصدر نفسه:6
- الشرقاوي،عفت.(د.ت) دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، بيروت: دارالنهضة
- ⁸-العربية،372
- ⁹-غازي ظليمات وعرفان الأشقر.(2007) الأدب الجاهلي. دمشق، دارالفكر.504
- حسني، يوسف.(2001)الادب الجاهلي: قضايا وفنون ونصوص، القاهرة: مصر: مؤسسة
- ¹⁰ -- المختار 79
- ¹¹- المصدر نفسه
- ¹²- المصدر نفسه
- ¹³-المصدر نفسه
- ¹⁴-المصدر نفسه

- 15-المصدر نفسه
- 16-المصدر نفسه
- 17-البستاني، فؤاد أفرام(1427) المجاني الحديثة، ج 1 ، قم:منشورات ذوي القربي،9
- 18-حسني، 99:2001
- 19-طليمات،الأشقر،507:2007
- 20- الحسين،319:2006
- 21-شداد، عنتره.(1997) ديوان عنتره ومعلقاته. بيروت، مكتبة الهلال.67
- 22-المصدر نفسه
- 23-الشرقاوي،د.ت:383
- 24-الديوان1997:46
- 25-الشرقاوي، د.ت: 283
- 26-طليمات،الأشقر،131:2007
- 27-الديوان،:1997:8
- 28-المصدر نفسه:86
- 29-الشرقاوي،د.ت:387
- ميلاد، محمود محمد(2004) رؤية نفسية لروائع مختارة من الشعر العربي، عمان. دار عمار
- 30- للنشر،56
- 31-طليمات،الأشقر،511:2007
- 32-حسني،121:2001
- 33- الحوفي، احمد(1959) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر: طبع 3،268
- 34-الجهاد، هلال.(2007) جماليات الشعر العربي، بيروت: بيت النهضة،363
- 35-ضيف، شوقي(د.ت) تاريخ الأدب العربي، الطبعة الأولى، منشورات ذوي القربي،قم،369
- 36-المصدر نفسه
- 37-الجهاد،368:2007
- 38-الديوان،26-27
- 39-المصدر نفسه،25

40-الحسين، 2006:9

41-الديوان:16

42-المصدر نفسه:18

الزواهرة، ظاهر محمد هزاع (2008 اللون ودلالاته في الشعر. الطبعة الدولي، عمان: دار

43-الحامد، 13

44-المصدر نفسه

45-المصدر نفسه

46-الديوان، 105

47-الزواهرة، 2008:18)

48-الديوان، 10

49-المصدر نفسه

خليف، مي يوسف.(د.ت) الموقف النفسي عند شعراء المعلقات. كلية الآداب ، جامعة

50-.قاهرة، 36

51-الديوان، 7

52-طليمات، 2007:512

53-الشرقاوي، د.ت:388

54-المصدر نفسه

55-الشرقاوي، 388

56-الديوان، 10

المصادر والمراجع

-أدler، آفريد.(2005) ترجمة عادل نجيب بشري، الطبيعة البشرية. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.

-أرسطو، (د.ت) فن الشعر، ترجمة: إبراهيم حمادة، منتديات مكتبة العرب.

-اسماعيل، عز الدين.(1979) التفسير النقدي للأدب، بيروت: دار العودة.

-بدوي، عبد الرحمن.(1980) دراسات في الفلسفة الوجودية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- البستاني، فؤاد أفلام(1427) المجاني الحديثة، ج 1 ، قم:منشورات ذوي القربي.
- بروجسكا، جيمزاو(1957) نظريه هاي روان درمانی، تهران، نشر رشد.
- الجهاد، هلال.(2007) جماليات الشعر العربي، بيروت: بيت النهضة.
- حسني، يوسف.(2001) الأدب الجاهلي: قضايا وفنون ونصوص، القاهرة: مصر: مؤسسة المختار.
- الحوفي، احمد(1959) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر: طبع 3.
- الزواهره، ظاهر محمد هزاع (2008) اللون ودلالاته في الشعر، الطبعة الدولي، عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع.
- الشرقاوي، عفت.(د.ت) دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، بيروت: دار النهضة العربية.
- ضيف، شوقي(د.ت) تاريخ الأدب العربي، قم: منشورات ذوي القربي.
- عبد الرحمن، عائشة(1970) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، مصر: دار المعارف.
- العقاد، عباس محمود.(د.ت) ابن الرومي، القاهرة: نهضة مصر.
- العقاد، عباس محمود.(د.ت) أبونواس الحسن بن هاني، القاهرة: نهضة مصر.
- العنبيكي، سعيد حسون.(2010) علم النفس الحديث، الهلال، بيروت: طبع 2.
- غازي طلبيمات وعرفان الأشقر.(2007) الأدب الجاهلي، دمشق: دار الفكر.
- فيروزيور، مرضيه.(1392) دراسة النماذج البدئية في شعر بلند الحيدري، جامعة شيراز.
- المقتسي، أنيس (1998). الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، بيروت: دار العلم للملايين.
- الموسي، أنور عبد الحميد،(2011). علم النفس الأدبي، الطبعة الدولي، بيروت: دار النهضة العربية.
- ميلاد، محمود محمد(2004) رؤية نفسية لروائع مختارة من الشعر العربي، عمان. دار عمار للنشر.
- النعيمي، أحمد إسماعيل.(2010) الشعر الجاهلي منطلقاته الفكرية، بيروت: الدار العربية للموسوعات.